

الحب

في التراث العربي الإسلامي

د. عبد الكريم اليافي

يطلعنا علم السكان الحديث أن مولوداً يولد كل ثانية تقريباً في العالم . هذا المولود نشأ عن الحب بل عن الوصال في الحب . ولكن الوصال في الحب الذي نشأ عنه الحمل قد تقدم عليه ورافقه وتأخر عنه عدد كثير من أحوال الوصال الجاري في ظل الحب . ونستطيع أن نتخيل في كل لحظة من اللحظات الزمنية مدى الحب الواسع المنتشر في الأرض بين الناس .

وقد نتجاوز بالخيال النوع الانساني فنتصور أحوال الحيوان بأنواعه المختلفة من ثدييات وطيور وأسماك وبرمائيات وزواحف إذا اقتصرنا على الفقاريات فقط دون ذكر المفصليات والرخويات وغيرها فتتسع بنا آفاق الحب ونزوع الكائنات بعضها الى بعض واعتناقها زوجين زوجين داخل النوع أو الصنف .

وقد يتخطى الخيال بنا أكثر من ذلك فنفكر في أنواع النبات وفصائله وتكاثره المتعدد الأشكال .

كذلك قد نتفكر في علاقات الأجسام المادية بعضها ببعض بل في العناصر الدقيقة الفيزيائية التي تتألف زوجين زوجين ..

وعندئذ تتضح لنا فكرة الشاعر الاسلامي عبدالرحمن الجامي في مقدمة كتابه ليلي والمجنون حين شبه هذا العالم ببستان الحب وشبه القبة الزرقاء السماوية بنيلوفر هذا البستان . وكذلك نفهم كيف ذهب ابن سينا في رسالة صغيرة كتبها في العشق خلافاً لبعض المفكرين اليونان القدماء أمثال أمدقلس الذي كان يرى البغض والكراهية ثاوين في أساس الكون والتجمع الانساني فرأى الشيخ الرئيس سريان قوة العشق في جميع الكائنات

من هويات عامة وبسائط حية وصور نباتية ونفوس حيوانية وأناس ذكور وإناث .
ويتدرج مؤلف القانون والشفاء هكذا الى ذكر عشق النفوس العليا التي ينعتها بالالهية
وينتهي الى أن كل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقاً غريزياً وأن الخير المطلق
يتجلى لعاشقه الا أن قبول الموجودات لتجليه واتصالها به على التفاوت وأن غاية القرب منه
هو قبول لتجليه على الحقيقة أعني على أكمل ما في الامكان .

كذلك يتضح لنا بعض أسرار الآية الكريمة : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما
تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

لا بد لنا بعد هذا الاتساع من أن نعود فنضيق نطاق الموضوع ونبحث في الحب
الانساني وحده وفي بعض صفاته وأشكاله . ولذلك نعتمد تحليل أبي حامد الغزالي للمحبة
في كتاب المحبة والشوق والانس والرضا من سفره الواسع الكبير احياء علوم الدين . فقد
بيّن أول الأمر أن المحبة مقترنة بالمعرفة والادراك فلا يتصف جماد بالحب مثلاً . وتنقسم
المدركات « الى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه والى ما ينافيه وينافره ويؤلمه والى ما
لا يؤثر منه بايلاام والذاذ . فكل ما في ادراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وما في
ادراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوباً
ولا مكروهاً . فان كل لذيد محبوب عند الملتذبه . ومعنى كونه محبوباً أن في الطبع ميلا اليه
ومعنى كونه مبغوضاً أن في الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشيء الملذ
فان تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقاً » .

ثم يرى أبو حامد « أن الحب لما كان تابعاً للادراك انقسم بحسب المدركات والحواس .
فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات . وللطبع
بسبب تلك اللذة ميل اليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم . فلذة العين في الابصار
وادراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة . ولذة الأذن في النغمات
الطيبة الموزونة . ولذة الشم في الروائح الطيبة . ولذة الذوق في الطعوم . ولذة اللمس في اللين
والنعومة » .

ويقرر الغزالي تمهيداً لما يريد الانتهاء اليه أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته
أي أن في طبعه ميلا الى دوام وجوده . فدوام الوجود محبوب ، وكذلك كمال الوجود لأن
الناقص فاقد للكمال . ويترتب على هذا ميل الانسان الى من يحسن اليه ثم الميل الى الشيء
بذاته كحب الأشياء المتحلية بالحسن والجمال والكمال .

ثم يترقى مؤلف الاحياء فيقرر أن الجمال والحسن ليس مقصوراً على تناسب الخلقة
والشكل وحسن اللون بل هو موجود في غير المحسوسات اذ يقال هذا خلق حسن وهذا
علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق حسنة . وانما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل
والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير . وشيء من هذه الصفات
لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة . وكل هذه خلال الجميلة

محبوبة ، والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته • وكذلك ينضم الى ما سبق من أسباب الحب ائتلاف النفوس وتناسبها •

ثم ان الجمال والحسن وسائر الصفات الجميلة الحسنى التي هي في أقصى درجات الكمال لا يتصور اجتماعها الا في حق الله تعالى • فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى •

وهكذا يتبين في هذا التحليل المتعمق والترتيب الصاعد ارتكاز الحضارة العربية الاسلامية على النظر المتفائل الى الكون لأن الخير والجمال والكمال هي الأمور الموجهة لتصرف الناس وأعمالهم والمعينة لغاياتهم وأهدافهم اذ هم جميعاً في غضون حيواتهم يتشوفون للقيم العليا التي هي من خصائص الكيان الانساني ومن مسوغات رفعتة وعليائه •

في كل ثانية يولد مولود ولكن في كل دقيقة يتوفى متوفى • الى جانب الولادة تثوى الوفاة • الى جانب الحب يسري الهلاك •

فالحب والهلاك والحياة والموت صنوان متآخذة متداخلة • هي كلها مختلطة في قوام الكون ونسج تركيبه ولكن الناس تحامياً لفكرة لهلاك والموت يستأنسون بالحب والحياة ويجرون على سننهما وأحكامهما • ولذلك نجد المؤلفين في تاريخ التراث العربي قد أكثروا من تناول أخبار الحب وكتبوا فيه الكتب الكثيرة سواء أقصروها عليه أم أدمجوها في مؤلفاتهم المتعددة •

□ بعض كتب التراث :

كتب التراث التي تبحث الحب الانساني كثيرة ولا بأس أن نورد أسماء بعضها المشهور ليظهر اتساع هذا البحث ومكانته في الحضارة العربية الاسلامية • فمن أقدم هذه الكتب :

١ - كتاب « الزهرة » :

لمؤلفه محمد بن داود الاصفهاني المعروف بالظاهري المتوفى ٢٩٦ أو ٢٩٧ هـ من أكابر علماء عصره وفقهائهم وأذكيائهم يقول في مقدمته :

« استودعته مائة باب ضمنت كل باب مئة بيت أذكر في خمسين باباً جهات الهوى وأحكامه وتصاريفه وأحواله وأذكر في الخمسين الثانية أفانين الشعر الباقية وأقتصر في ذلك على قليل من كثير وأقتنع من كل فن باليسير اذ كان ما نقصده أكثر من أن يتضمنه كتاب أو يعبر عن حقيقته خطاب » • ثم يقول : « ومن لم يرج الكمال في الاكثار كان حقيقاً أن يقنع بالاختصار » •

هذا وللمؤلف قصة مشهورة في الحب مذكورة في الكتب • وهو معاصر لابن الرومي، حكى أبو بكر بن أبي الدنيا أنه حضر مجلس محمد (في الفتيا) فجاءه رجل فدفع اليه رقعة فأخذها وتأملها طويلاً وظن تلامذته أنها مسألة فقلها وكتب في ظهرها ودفعها فاذا الرجل علي بن العباس المعروف بابن الرومي الشاعر واذا في الرقعة مكتوب :

يا بن داود يا فقيه العراق أفتنا في قوائل الأحداق
هل عليهن في الجروح قصاص أم مباح لها دم العشاق
وإذا الجواب :

كيف يفتيكم قتيل صريع بسهام الفراق والاشتياق
وقتيل التلاق أحسن حالا عند داود من قتيل الفراق

٢ - كتاب « طوق الحمامة في الالفه والألاف »

للإمام أبي محمد علي بن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ كان وزيراً للمستظهر بالله ثم للمعتد بالله - كتبه لمن استكتبه في هذا الموضوع فهو يقول في المقدمة : « كلفتني - أعزك الله - أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا متزيدياً ولا مفضيلاً ، لكن مورداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما أذكره فبادرت الى مرغوبك ولولا الإيجاب لك لما تكلفته . »

قسم كتابه على ثلاثين باباً في أصول الحب وفي أعراضه وصفاته المحمودة والمذمومة والآفات الداخلة عليه . وهو من أجود الكتب المفيدة في هذا المجال إذ يتصف بالبحث والتنقيح واعتماد المشاهدة والملاحظة الى الجوانب الأدبية والشعرية . ومن مثل صاحب كتابي « المحلى » و « الفصل » في جودة التأليف وسعة الاطلاع ودقة الكتابة ولقانة البديهة وحسن الذاكرة ؟!

ولابن حزم رسالة صغيرة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل خصص فصلاً فيها لشرح أنواع المحبة طبعت عدة مرات ثم طبعت في مجموعة الروائع الانسانية (السلسلة العربية) بإشراف الأونيسكو بعنوان كتاب الأخلاق والسير وترجمت الى الفرنسية . وفي المكتبة الظاهرية مخطوطتان لها يرى مؤلفها أن « المحبة كلها جنس واحد . ورسمها أنها الرغبة في المحبوب وكراهة منافرتة والرغبة في المقارضة منه بالمحبة . وانما قدر الناس أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض فيها . وانما اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع وتزايدها وانحسامها . فتكون المحبة لله عز وجل وفيه وللاتفاق على بعض المطالب وللأب والابن والقراية والصديق وللسلطان ولذات الفراش وللمحسن والمأمول وللمعشوق . فهذا كله جنس واحد اختلفت أنواعه كما وصفت لك على قدر الطمع فيما ينال فلذلك اختلفت وجوه المحبة . »

٣ - كتاب « مصارع العشاق في شارع الأشواق » :

للقاضي أبي المعالي عبدالعزيز بن عبد الملك المتوفى سنة ٤٩٤

٤ - « مصارع العشاق » :

للشيخ أبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي المتوفى سنة ٥٠٠

طبع في مطبعة الجوائب عام ١٣٠٢ هـ وهو متداول وقد عقده مؤلفه على اثنين وعشرين جزءاً كتب على وجه كل جزء ثلاثة أبيات من نظمه . وعلى وجه الجزء الأول هذه الأبيات:

هذا كتاب مصارع العشاق صرعتهم أيدي نوى وفراق
تصنيف من لدغ الفراق فؤاده وتطلّب الراقي قعرَ الراقي
فاذا تصفحه اللبيب رثى لهم أسرى الهوى أيسوا من الاطلاق

٥ - « منازل الأحباب ومنازه الألباب »

لشهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد الحلبي ثم الدمشقي الحنبلي صاحب ديوان الانشاء المتوفى بدمشق سنة ٧٢٥ .

٦ - « روضة المحبين ونزهة المشتاقين »:

للشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ أوله : « الحمد لله الذي جعل المحبة الى الظفر بالمحبوب سبيلاً ، ونصب طاعته والخضوع له على صدق المحبة دليلاً » ثم يقول والضمير يرجع الى المحبة ويستعملها بالمعنى الواسع الذي يشبه استعمال فرويد لها أو كارل غستاف يونغ مستجيباً للفقرات المزدوجة بالسجع . « وصرّفها أنواعاً وأقساماً بين بريته وفصلها تفصيلاً فجعل كل محبوب لمحبه نصيباً ، مخطئاً كان أو مصيباً وجعله منعماً أو قتيلاً . فقسمها بين محب الرحمن ومحب الأوثان ومحب النيران ومحب الصليان ومحب الأوطان ومحب الاخوان ومحب النسوان ومحب الصبيان ومحب الأثمان ومحب الايمان ومحب الألحان ومحب القرآن ، وفضل أهل محبته ومحبة كتابه ورسوله على سائر المحبين تفضيلاً . فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسموات وعليها فطرت المخلوقات ولها تحركت الأفلاك الدائرات ، وبها وصلت الحركات الى غاياتها واتصلت بداياتها بنهاياتها . وبها ظفرت النفوس بمطالبها . وحصلت على نيل مآربها وتخلصت من معاطبها . »

وجعل ابن قيم الجوزية كتابه تسعة وعشرين باباً ذكر في الباب الأول أسماء المحبة ووجد أن العرب قد وضعت لها قريباً من ستين اسماً يذكرها المؤلف ثم يشرع في الباب الثاني في شرح اشتقاق تلك الألفاظ ويوضح في الباب الثالث نسبة هذه الأسماء بعضها الى بعض ثم يعالج في الأبواب الباقية جوانب المحبة وما يتعلق بها .

٧ - « الواضح المبين فيمن استشهد من المحبين » :

لعلاء الدين مُغلطاي بن قليج المتوفى سنة ٧٦٢ .

٨ - « ديوان الصبابة » :

لشهاب الدين أحمد بن أبي حجلة المغربي مولداً الدمشقي منشأ نزيل القاهرة المتوفى سنة ٧٧٦ . يستهله بقوله : « الحمد لله الذي جعل للعاشقين بأحكام الغرام رضا ، وحبب اليهم الموت في حب من يهوونه فلا تكن يا فتى بالعدل معترضاً . فكم فيه من عاشق ومحب صادق :

رأى فحب فرام الوصل فامتنعوا فسام صبراً فأعيا نيله ففضى

ثم يقول : « أما بعد فان كتابنا هذا كما قيل :

كتاب حوى أخبار من قتل الهوى وسار بهم في الحب في كل مذهب
مقاطيعه مثل المواصيل لم تزل تشبب فيه بالرباب وزينب

فهم ما هم ، (تعرفهم بسيماهم) (١) . قد تركهم الهوى (كهشيم المحتظر) (٢) ،
وأصبحوا من علة الجوى على قسمين : (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) (٣) فهم ما بين
قتيل وشهيد ، وشقي وسعيد ، على اختلاف طبقاتهم وأشكالهم ، وتباين مراتبهم وأحوالهم
وهو يشير الى اطلاعه على كتاب « منازل الأحباب ومنازه الألباب » وعلى كتاب « طوق
الحمامة » ، ويدعي تفضيل كتابه عليهما فيقول : « فربع كتابنا بذكر العامرية معمور ،
وهو بالنسبة الى ما ألفه الشهاب محمود مشكور . ومن وقف عليه علم صحة هذا الكلام ، وأنشد
في تصديق هذه الدعوى (اذا قالت حذام ٠٠) (٤) مؤلف طوق الحمامة بالنسبة الى حجلته
يحجل ، وصاحب منازل الأحباب ممن (عرف المحل فبات دون المنزل) (٥) . ثم يردف : فان
قلت : (الفضل للمتقدم) (٦) و (هل غادر الشعراء من متردم) (٧) قلت : نعم ! (٠٠) في
الخمير معنى ليس في العنب) (٨) ، وأحسن ما في الطاووس الذنب . »

ومن الجدير بالذكر أن ابن أبي حجلة ولد في السنة التي توفي فيها الشهاب محمود صاحب
كتاب « منازل الأحباب » .

وفي ديوان الصبابة فقرات كثيرة تشبه ما ورد في كتاب « روضة المحبين » . وكان
القدماء كثيراً ما ينقل بعضهم من بعض .

٩ - « مشارع الأسواق الى مصارع العشاق ومثير الغرام الى دار السلام » :

لأحمد بن ابراهيم المعروف بابن النحاس الدمشقي المتوفى سنة ٨١٤ - أو ٨٣٨ وهو في
مجلد كبير حافل في معناه كما يقول مؤلف « الضوء اللامع » وقد اختصره مؤلفه .

١٠ - « الفائق في المواعظ والرقائق » :

للشيخ صدر الدين محمد بن محمد البارزي المتوفى سنة ٨٥٧ التقطه على حد تعبير
حاجي خليفة من كتاب مصارع العشاق في شوارع الأشواق للقاضي أبي المعالي .

١١ - « أسواق الأشواق من مصارع العشاق » :

لابراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي نزيل القاهرة ثم دمشق المتوفى سنة ٨٨٥ .
وقد عمد مؤلفه الى كتاب ابن السراج فرتبه وهذبه وزاده من نوادر الأخبار وأدخل فيه
جميع كتاب الحافظ مغلطي المسمى الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين ، وذكر
جميع حكايات منازل الأحباب ومنازه الألباب لشيخه الشهاب فجاء في مقدمة وعشرة أبواب
على حد وصف حاجي خليفة له .

١٢ - « السلسل الرائق المنتخب من الفائق » :

للشيخ ابراهيم بن يوسف المعروف بابن الحنبلي الحنفي المتوفى سنة ٩٥٩ انتخبه مؤلفه كما أشار هو نفسه من كتاب « الفائق » .

١٣ - « تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق » :

للشيخ داود الانطاكي الضرير مؤلف التذكرة الطبية المتوفى سنة ١٠٠٨ . استهله بقوله :

« الحمد لله الذي أطلع في بروج اعتدال القدود شمس المحاسن والجمال وأهل في منازل السعود بدور اللطائف والكمال ، وزين أغصان القدود برمان النهود ، ورياض الوجوه بنرجس اللحاظ وورد الخدود ، وألف بين ما نظم في الثغور وقلائد النحور ، وجعل تسريح الأبصار لذوي البصائر ولطافة الأفكار من أسباب الافتتان بتأمل الحسان ، فنزلهم وان اختلفت أغراضهم منزلة الأغراض لرشق قسي الحواجب بسهام الألقاظ » وقد اعتمد هذا المؤلف العلامة على كتاب « أسواق الأشواق » المأخوذ من كتاب « مصارع العشاق » ، وكذلك جمع فيه « ديوان الصبابة » . وهكذا يبدو بين طوائف كتب الآداب شجرات الأنساب بعضها يستفيد ويتغذى من بعض في شتى الأغراض والآراب .

هذا ونلاحظ أن هؤلاء المؤلفين من الشيوخ والفقهاء والعلماء . وكل هذه الكتب في الحب الانساني يضاف اليها ما جاء من أخبار العشق والعشاق في كتب الأدب ولا سيما الموسوعية ككتاب الأغاني وجميع الروايات والسير الشعبية كآلف ليلة وليلة وجميع دواوين الشعراء ، ثم فوق ذلك كله كتب الحب الصوفي الكثيرة التي لا تكاد تخصي (٩) .

□ ملاذ الحب ومآسيه وتحليل الألفاظ الدالة عليه :

الحضارة العربية الاسلامية متوازنة العناصر متعادلة الجوانب هي حضارة الوسط . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » (٢ - ١٤٣) والوسط هنا ليس معناه الفاتر بين طرفين ولكن معناه ذروة الجبل بين منحدرين ، معناه مركز الدائرة الذي هو السر في وجودها . والناس في نظر تلك الحضارة مسؤولون عن عمارة الدنيا وعمارة الآخرة . عن عمارة الدنيا المؤدية الى عمارة الآخرة . والطيبات فيها مباحة للناس في حدود الشرع . تشير مباهج الدنيا من بعيد الى مباهج الآخرة الصافية . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٧ - ٣٢) .

فلا غرو أن يحفز الدين الاسلامي على المحبة بمعناها الواسع وعلى الحب الخاص أي الحب في الزواج . ولهذا لهج الشعراء بالتنويه بالجمال وآثاره في القلوب والأحشاء وفاكهوا الفقهاء وتحرشوا بهم في هذا السبيل . وقدم تحرش ابن الرومي بالفقيه الظاهري محمد ابن داود . وينسب « تزيين الأسواق » الى أبي نواس هذه الأبيات الفكهة وليست في ديوانه : (١٠)

حدثنا الخفاف عن وائل
ومسعر عن بعض أصحابه
وابن جريج عن سعيد وعن
قالوا جميعاً أيما طفلة
فواصلته ثم دامت له
كانت لها الجنة مبذولة
وأي معشوق جفا عاشقاً
ففي عذاب الله مثوى له

وخالد الحذاء عن جابر
يرفعه الشيخ الى عامر
قتادة الماضي وعن غابر
علّقها ذو خلق طاهر
على وصال الحافظ الذاكر
تمرح في مرتعها الزاهر
بعد وصال ناعم ناضر
بعداً له من ظالم غادر

الجنة في الآخرة مبذولة للحبيبة الساذجة المسعفة المواصله وهي مهددة عند جفائها
بالجحيم . ولكن الشاعر يبحث وهو - كما يدعي - ذو الخلق الطاهر فيلتمس أن يشم
روائح الجنة في الدنيا ، وما ندري ما شأنه في الآخرة .

وقد نوه الشعراء بالحب الحسي والحب الروحي معاً ، وأشادوا بالاخلاص فيهما .
حسب المرء أن يضافي حبيباً واحداً يحرص عليه كل الحرص ويتحامى فيه الحساد والعدال .
قد تشف الروايات والقصص الشعبية عن مطامح الناس وتصور ميولهم ومشاعرهم
وصبواتهم . نطالع في الليلة الثانية عشرة بعد المائتين في رواية ألف ليلة وليلة هذه القطعة
الجميلة :

زر من تحب ودع مقالة حاسد
لم يخلق الرحمن أحسن منظراً
متعانقين عليهما حلل الرضا
واذا صفا لك من زمانك واحد

ليس الحسود على الهوى بمساعد
من عاشقين على فراش واحد
متوسدين بمعصم وبساعد
فاحرص عليه وعش بذاك الواحد

كما نطالع في الليلة نفسها هذه المداعبة بين حبيبين تختبئ الحبيبة ويبحث عنها حبيبها
في كل مكان فلا يجدها . كأنما كانا يلعبان وهما يتضاحيان في ميعة الصبا وتمام الشباب :

قالت وقد فتشت عنها كل من
أنا في فؤادك فارم طرفك نحوه

لاقيته من حاضر أو بادي
ترني فقلت لها وأين فؤادي

وفي بحور الشعر العربي الواسعة تنويه بالحب ومباهجه كما فيه تنديد بشدائده
ومصائبه ولعناته .

مما جاء فيه تنويهاً :

ولا خير في الدنيا بغير صباية
ولا في نعيم ليس فيه حبيب

وأيضاً :

وما طابت الدنيا بغير محبة
وأي نعيم لامرئ غير عاشق

وأيضاً :

وما ذاق طعم العيش من لم يكن له حبيب اليه يطمئن ويسكن
ويخاطب العازب نفسه قائلاً :

اسكن الى سكن تلذ بجبهه ذهب الزمان وأنت خال مفرد
الى غير ذلك مما هو معروف ومتداول يملأ الكتب الأدبية .
أما التنديد بالحب فهو كثير أيضاً :

وما في الأرض أشقى من محب تراه باكياً في كل حين
فبيكي أن نأى شوقاً اليه وتسخن عينه عند التناهي
وان وجد الهوى حلو المذاق مخافة فرقة أو لاشتياق
وبيكي أن دنا خوف الفراق وتسخن عينه عند التلاقي

• ان أهل العشق أذلاء ، في الدنيا والآخرة :

مساكين أهل العشق حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر

ذلك أن العشق عذاب في الدنيا يمنع صاحبه لذة الكرى ، وهو يصرف صاحبه أيضاً
عن الأعمال الصالحة :

العشق مشغلة عن كل صالحة وسكرة العشق تنفي لذة الوسن

هذان الجانبان المتقابلان المتضادان للمحبة والعشق لا يكفي عرضهما دون تدقيق
وتفصيل . واللغة العربية بثرائها وغناها وسعتها تعين بالألفاظ التي وضعتها لمعاني
المحبة على هذا التفصيل والتدقيق . ان تلك الألفاظ العربية التي ليس لها مقابل في اللغات
الأجنبية قريبة جداً من التحليل النفسي الذي نجده في علم النفس الحديث . بل ان هذا
العلم اذا تقدم في مختلف ميادينته محتاج أن يقتبس من اللغة العربية مختلف مفرداتها
الدقيقة التي سبقت الى وضعها .

نلاحظ قبل كل شيء أن لفظ الحب مؤلف من حرفين الحاء ومخرجه أقصى الحلق
والباء ومخرجه بين الشفتين . ولما كانت أسماء الأشياء كلها تخرج بين الحلق والشفيتين
لف الحب جميع الكائنات عند الدلالة عليها باللفظ وأتى عليها . ومن المناسب دائماً في
اللغة العربية أن ننتبه الى مخارج الحروف ودلالات ترتيبها فان ذلك من أسرار هذه اللغة
العظيمة .

لنتأمل الآن دون مغالاة بعض معاني تلك الألفاظ التي تدخل تحت لواء الحب ولنعتمد
على كتاب روضة المحبين وما جاء فيه في بيان اشتقاق تلك الأسماء فنحن مدينون لمؤلفه
الشيخ الفقيه في هذا البيان والايضاح . ولكن مثل ذلك ورد في « ديوان الصباية » أيضاً .
قالوا في المحبة التي هي أم هذه الأسماء انها الميل الدائم بالقلب الهائم وايتار المحبوب على

جميع المصحوب ، وموافقة الحبيب في المشهد والمغيب . وقيل أن تَهَبَ كلك لمن أحببته فلا يبقى منك شيء . وقيل هي نار تحرق من القلب ما سوى مراد الحبوب، وقيل ذكر المحبوب على عدد الأنفاس وقيل عمى القلب عن رؤية غير المحبوب وصممه عن سماع العذل فيه . وفي الحديث حبك الشيء يعمي ويصم . وقيل ميلك الى المحبوب بكليتك وايثارك له على نفسك وروحك ومالك ثم موافقتك له سراً وجهرأ ثم علمك بتقصيرك في حبه .

والود خالص الحب وألطفه وأرقه وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة .
والخلّة توحيد المحبة . فالخليل هو الذي توحد حبه لمحبيه وهي رتبة لا تقبل المشاركة .
والغلم مأخوذ من المخالمة وهي المصادقة والمودة والغلم الصديق .
والرئيس الشيء الثابت فرئيس الحب ثباته ودوامه .

قال ذو الرمة :

إذا غير النائي المحبين لم يكد رئيس الهوى من حب مية يبرح

وأما الهوى فهو ميل النفس الى الشيء وقال اللغويون هوى يهوى هوى كعمي يعمي عمى وأما هوى بالفتح يهوى فهو السقوط ومصدره الهوى بالضم وقد يطلق الهوى على الحبيب فيقال هذا هوى فلان وفلانة هواه أي مهيوته وحبيبته .
وأما الصباية فهي رقة الشوق وحرارته . يقال رجل صب أي عاشق مشتاق :

تشكى المحبون الصباية ليتني تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

وأما الشغف فمعناه بلوغ الحب شغاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب .

والشعف مثله أو هو احراق القلب والامراض .

وأما الوجد فهو الحب الذي يتبعه الحزن وهو يطلق على محبة معها فقد ، فقد " يوجب الحزن .

وأما الكلف فأصله من الكلفة التي هي المشقة ومنه تكلفت الأمر تجشمته .

وأما التتيم فهو التعبد من قولهم تيمم الحب اذا عبّده وذلله فهو متيم .

وأما العشق فهو أمرٌ هذه الأسماء وأخبرتها كما يقول ابن قيم الجوزية . قيل هو مأخوذ من شجرة يقال لها عشقة تخضر ثم تدق ثم تصفر وهي تتعلق بما يليها من أشجار والعاشق اسم الفاعل والمعشوق اسم المفعول وكلاهما عشيق يطلق اللفظ على العاشق والمعشوق .

واختلف الناس هل يطلق هذا الاسم في حق الله تعالى ؟ فقالت طائفة من الصوفية لا بأس باطلاقه . وقال جمهور الناس لا يطلق ذلك في حقه سبحانه وذكروا سبب المنع على ثلاثة أقوال أحدها عدم التوقيف بخلاف المحبة . الثاني أن العشق افراط المحبة ولا يمكن ذلك في حق الرب فان الله لا يوصف بالافراط في الشيء ولا يبلغ عبده ما يستحقه من حبه فضلاً أن يقال أفرط في حبه . الثالث أنه مأخوذ من التغير كما يقال للشجرة المذكورة عشقة .

وأما الجوى فهو الحرقه وشدة الوجد من عشق أو حزن .

وأما الدنف فهو المرض الملازم وقد دنف المريض بالكسر وأدنف اذا ثقل وأدنفه المرض يتعدى ولا يتعدى فهو مدنف ومدنف . وكأنهم استعاروا هذا الاسم للحب اللازم تشبيهاً له به . ويقال رجل دنف بفتح النون وامرأة دنف وقوم دنف يستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع . فان قلت رجل دنف بكسر النون قلت امرأة دنفة أنثت وثنيت وجمعت .

وأما الشجو فهو حب يتبعه هم وحزن .

والشجى ما ينشب في الحلق من عظم أو غيره ، ورجل شج أي حزين وامرأة شجية على وزن فَعِلَة . فأطلق هذا الاسم على الحب للزومه كالشجى الذي يعلق بالحلق وينشب فيه .

وأما الشوق فهو سفر القلب الى المحبوب . وهو من أسماء الحب . قال في الصحاح : الشوق والاشتياق نزاع النفس الى الشيء . يقال شاقني الشيء يشوقني فهو شائق وأنا مشوق وشوقني فتشوقت اذا هيج شوقك وجاء لفظ شيق بمعنى مشتاق لا بمعنى شائق . قال الشريف الرضي :

وما تلوّم جسمي عن لقاءكم الا وقلبي اليكم شيق عجل

واختلف في الفرق بين الشوق والاشتياق أيهما أقوى فقالوا الشوق أقوى فانه صفة لازمة والاشتياق فيه نوع افتعال كما يدل عليه بناؤه كالاكتساب ونحوه . وقالت فرقة الاشتياق أقوى لكثرة حروفه . وكل زيادة في المبنى زيادة في المعنى . وقالت جماعة الاشتياق يكون الى غائب وأما الشوق فانه يكون للحاضر والغائب .

واختلف أرباب الشوق هل يزول الشوق بالوصال أو يزيد ؟ فقالت طائفة : يزول فان الشوق سفر القلب الى المحبوب فاذا وصل انتهى السفر . قالوا : ولأن الشوق انما يكون لغائب فلا معنى له مع الحضور . ولهذا انما يقال للغائب : أنا اليك مشتاق . وأما من لم يزل حاضراً مع المحب فلا يوصف بالشوق اليه . وقالت طائفة : بل يزيد بالقرب واللقاء واستدلوا بقول الشاعر :

وأعظم ما يكون الشوق يوماً اذا دنت الخيام من الخيام

قالوا : ولأن الشوق هو حرقه المحبة والتهاب نارها في قلب المحب وذلك مما يزيده القرب والمواصلة . والصواب في رأي ابن قيم الجوزية أن الشوق الحادث عند اللقاء والمواصلة غير النوع الذي عند الغيبة عن المحب . قال ابن الرومي :

أعانقتها والنفس بعد مشوقة	اليها وهل بعد العناق تداني
والثم فاها كي تزول حرارتي	فيشتد ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدار الذي بي من الهوى	ليشفيه ما ترشف الشفتان
كان فؤادي ليس يشفي غليله	سوى أن يرى الروحان يمتزجان

شعر ابن الرومي يجنح الى وحدة الحبيبين وقد عبر عنها شاعر آخر مجهول بيتين
تمثل بهما العلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدننا
فاذا أبصرتني أبصرته واذا أبصرته أبصرتنا

ولكن هل يستمر الحب في هذا الاتحاد الذي يقع في ذروة الوصال الناجح لو حصل؟
هيهات ! ذلك أن توهج الشعور المتحد المحتدم لا يدوم الا لمعة بارق ثم ينفصم الحبيبان في
الحب الانساني ويعود القلق والسعي مرة ثانية وسؤال المحب نفسه عن مشاعر المحبوب
بعد أن تملكه فينة من الوقت . وقد قال العرب في هذا المعنى : « اذا صح الظفروقت
الغير » . ذلك أن المحبوب انسان له وجود متميز وهو ذو حرية . النزوع الى تملك هذه
الحرية مشكلة كبيرة . لو تم لأصبح الحبيب شيئاً مادياً وغدا الحب عطقاً أو ازدراء فتغير
معناه وخرج عن نطاق المحبة .

ان في الشوق والحب خدعة . كلما اقترب المحب من حبيبه نأى الحبيب على رغم
الوصال وابتمد بهذه الحرية . وقد أطلق العرب على هذا النوع من الحب لفظ **الخلافة** .
وهو الحب الذي وصل الى الخلب وهو الحجاب بين القلب والحشا . ولكن الخلافة أيضاً معناها
الخداع لأن الحب يخدع ألباب أربابه . وفي المثل « اذا لم تغلب فاخلب » ، أي اذا أعياك
الأمر مغالبة فاطلبه مخادعة . والخلبة الخداعة والخلاب الخداع الكذاب . ومنه البرق الخلب
الذي لا غيث فيه كأنه خادع . والخلب أيضاً السحاب الذي لا مطر فيه . ويعلق ابن قيم
على هذا اللفظ فيقول : والحب أحق ما يسمى بهذا الاسم لأنه يعمي ويصم ويخدع لب المحب
وقلبه .

خداع الحب هذا هو الذي يولد الوسواس والهم والغم . ولذلك نسب العرب الى
الحب بلابل فقالوا بلابل الحب وبلابل الشوق وهي الهم ووسواس الصدر وليس ذلك بسهل .
انما هو العذاب اللازب . ولذلك سمو ما يلقاه المحب أيضاً تباريح الشوق وتباريح الحب
وتباريح الجوى وهي الشدائد والدواهي .

وقد يشعر المحب بالنديم يساور نفسه وبالحزن تحجب سحابته صفاء بصيرته . وهذا
هو السدم فهو الحب الذي يتبعه ندم وحزن أو يشعر المحب كأنه في لجج من الاضطراب
والغفلة فهذه غمرات الحب التي تشبه غمرات الموت أي شدائده .

وكثيراً ما يتغير لون المحب اذا رأى محبوبة فجأة فيرتاع ويصفر لونه ويبهت .

وما هو الا أن أراها فجأة فأبهت حتى لا أكاد أجيب

وهذا هو الوهل وأصله الفزع والروع يقال وهل يوهل وهو وهل ومستوهل .

والشجن من أسماء الحب لأن الشجن الحاجة حيث كانت حاجة المحب أشد شيء الى

محبوبة .

قال الراجز :

اني سأبدي لك فيما أبدي لي شجنان شجن بنجد
وشجن لي ببلاد السند

وقد مر قيام الحب على العوز وعلى الحاجة • ولكن للشجن معنى آخر وهو الحزن •
والحب فيه الأمران الأمران فيه الحاجة وفيه الحزن جميعاً •
وغالباً ما يساور المحب الألم ويلسع فؤاده • وهذا هو اللاعج • ويقال هوى لاعج
لحرقة الفؤاد من الحب •
والألم قد يجتمع معه المرض وهذا هو الوصب •

وأما الكمد واللدغ والحرق والسهد والأرق واللهف والحنين والاستكانة واللوعة
والفتون والخبل فهي جميعاً من أحكام الحب وآثاره •

وأما الداء المخامر فهو من أوصافه وسمي مخامراً لمخالطته القلب والروح •
وأما الغرام فهو الحب اللازم ومنه قولهم رجل مغرم من الغرم أو الدين والغرام أيضاً
الشر الدائم والعذاب ومنه قوله تعالى : « ان عذابها كان غراماً » •
والهيام أشد العطش وهو أيضاً كالجنون من العشق يقال هام على وجهه هيماً وهيماناً •
والتدليه ذهاب العقل من الهوى يقال دلّه الحب أي حيره •
والوله ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد ورجل واله وامرأة واله ووالهة •
والتعبد غاية الحب وغاية الذل يقال عبده الحب أي ذلله وطريق معبد بالأقدام
أي مدلل •

وآخر أنواع الحب الجنون • وأصل المادة من الستر في جميع تصاريدها • ومنه
أجنه الليل وجنّ عليه إذا ستره ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه ومنه الجنة لاستتارها بالأشجار
ومنه المجن لاستتار الضارب به والمضروب ومنه الجن لاستتارهم عن العيون بخلاف الانس •
فانهم يؤنسون أي يرون ومنه الجنة بالضم وهي ما استترت به واتقيت • وأجننت الميت
واريته في القبر فهو جنين • والحب المفرط يستر العقل فلا يعقل المحب ما ينفعه ويضره
فهو شعبة من الجنون •
على أن بعض الشعراء يرى الجنون أخف من العشق •

قالت جننت بمن تهوى فقلت لها العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وانما يصرع المجنون في الحين

□ مجنون ليلى رمز العشاق :

ان كل عاشق قد أصابه طرف من اللمم أو مس من الجنون • ولكن قيس بن الملوح
هو الذي عرف بالمجنون وهو رمز الحب المفرط في تاريخ الحب • ولسنا نريد الآن أن نشك

ولا أن نثبت ولا أن ندعي العلم الواسع والنهج العلمي كما فعل طه حسين في حديث الأرباع
فإن كل ما صنع هذا الأديب الناقد واضح بيّن بين أخبار المجنون في كتاب الأغاني ، وإنما
نتخذ قياساً هذا الذي لانشك في أنه يمثل طائفة العشاق . فهناك ألوف العشاق المجانين
من أشهرهم قيس بن الملوح وقيس بن ذريح وعروة بن حزام وغيرهم وغيرهم . ونظن أن
الذين لم تسجل أسماءهم كتب الأدب أكثر من هؤلاء العشاق .

ذكر الأصمعي (١١) أنه سأل اعرابياً من بني عامر عن المجنون العامري فقال : عن
أيهم تسأل فقد كان فينا جماعة رموا بالمجنون فعن أيهم تسأل فقلت عن الذي كان يشبب
بليلى فقال كلهم كان يشبب بليلى . ثم يستنشد الأصمعي الاعرابي شعراً لبعضهم
فينشده بعض القطع الشعرية الجميلة ثم يختم انشاده فيخاطب الأصمعي قائلاً حسبك
فوالله إن في واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم .

هذا معناه أن العقل في الحب هو الجنون نفسه .

قال الجاحظ : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلى الا نسبوه الى المجنون ولا
شعراً هذه سبيله قيل في لبنى الا نسبوه الى قيس بن ذريح .

نحن يهمنا إذن هذا الرمز الأدبي العاطفي في قيس بن الملوح . لقد نشأ مع ليلى
وهي صغيرة ذات ذؤابة يرعيان الماشية ويلعبان :

تعلقت ليلى وهي ذات ذؤابة ولم يبد للاتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا الى الآن لم تكبر ولم تكبر البهم

العمل الفني سواء أكان شعراً أم رسماً أو موسيقى إذا أنجز خرج عن سيطرة الزمان
ولكن الانسان قد يشعر ابانه بلحظة عميقة ينفذ فيها الى أعماق الوجود وما فيه من ألفة
ومحبة كما شعر ذلك الراعي الصغير اذ بقيت تلك الذكرى ماثلة في نفسه أو ينفذ الى أعماق
الوجود وما فيه من قرف وتقزز ونفور كما شعر فيلسوف الوجودية سارتر . ولكن الانسان
كان من كان لا يلبث أن يرتد الى حياته العادية التي هو مضطر أن يلبي حاجاتها وهو مالك
لارادته ووعيه .

قد يقع بين الأحياء والقبائل والأسر نزاع أو عداة كما وقع بين أهل روميو وجولييت
على رأي شكسبير وكما وقع بين شيمين ورودريك على رأي كورني وكما جاء التلميح الى
ذلك في شعر المجنون ولكن الحب يزدري ذلك كله ويطرف عنه يقول المجنون :

وقد لامني في حب ليلي أقاربي أخي وابن عمي وابن خالي وخاليا
يقولون ليلي أهل بيت عداوة بنفسي ليلي من عدو وماليا

فهو يفدي ليلى بماله ونفسه . ذلك أن الحب يقوي الحب ويدعمه . ولو شعر قيس
بأدنى عزوف من ليلى عنه لانصرف عنها على الرغم من الحب الجارف . انه مطمئن الى
حبها له :

ولو كان في ليلى شداً من خصومة للويت أعناق المطي الملاويا

أراد قيس ذات يوم أن يزور ليلى فركب ناقته وسار بها وهو مشغول البال . ولكن الناقة كان لها فصيل تجبه وتحن اليه فما ان شعرت بضعف القيادة حتى ثنت عنانها آية الى رضيعها ، ثم أدرك قيس أنها راجعة فردها الى مقصده ولكن قيساً استغرق في تفكيره فرجعت الناقة الى طريق عطنها مرة ثانية فردها أيضاً الى غايته وهكذا فعل قيس وفعلت الناقة أربع مرات . وعندئذ نزل عنها وخلصها وترجع الى فصيلها وسلك هو وحده الطريق الى ديار الحبيب وغنى ذلك في شعره :

هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى واني واياها لمختلفان
هواي أمامي ليس خلفي معرج وشوق فلوصي في الغدو يمانى
هواي عراقي وتثني زمامها لبرق اذا لاح النجوم يمانى
متى تجمعي شوقي وشوقك تظلعي ومالك بالعبء الثقيل يدان

هذا الشعر لعروة بن حزام من قصيدة طويلة له ولكن الشاعر الفارسي عبدالرحمن جامي في كتابه ليلى والمجنون ينسب القصيدة الى المجنون .

ليلى الأثنى تلعب بالنار . فقد زارها قيس فأكرمت زيارته وحادثته ولكنها أرادت أن تعلم هل لها عنده مثل ما له عندها فجلست تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدث غيره ونظرت الى وجه المجنون قد تغير وامتقع وشق عليه ما فعلت فأنشأت تقول :

كلانا مظهر للناس بفضاً وكل عند صاحبه مكين
تبلغنا العيون مقاتلتينا وفي القلبين ثم هوى دفين

فلما سمع هذين البيتين شفق شهقة عظيمة وأغمي عليه فمكث كذلك ساعة ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه وبلغ منه كل مبلغ ثم انصرفت عنه وهو من أشد الناس سروراً وأقرهم عيناً .

جاء قيس منزل ليلى يطلب قبساً من نار وهو متلفع ببرد له من البرد فأخرجت ليلى له ناراً في عطبة فأعطته اياها ووقفاً يتحدثان فلما احترقت العطبة أخذ خرقه من برده وجعل النار فيها فكلما احترقت خرق أخرى وأذكى بها النار ثم انسابت النار الى راحتيه دون أن يشعر . وقد لخص شوقي ذلك الحديث :

رب فجر سألتـه هل تنفست في السحر
وريحاح حسبتها جررت ذيلك العطر

ولكن ليلى تخشى عليه خطر النار فتقاطعه :

ويح قيس تحرقت راحتيه وما شعر

هذا الحب يصاب بلعنة وأي لعنة . فقد بلغا الناس في حبهما وأرجفوا الأراجيف وذكروا لقاءهما ليلة الغيل اذ يقول قيس :

أبت ليلة بالغيل يا أم مالك لكم غير حب صادق ليس يكذب

وقد كرهت ليلي هذا البيت خشية الأقاويل .

ولما أتى قيس بن ذريح ليلي شفيحاً لسميّه ابن الملوح ومثيله في جنون العشق قال لها :
ان الناس تأولوا كلامه على غير ما أراد فلا تكوني مثلهم . انما أخبر أنه رأى ليلة الغيل
فذهبت بقلبه لا أنه عناك بسوء فأطرقت طويلاً ودموعها تجري وهي تكفكفها ثم انتحبت وقالت
لابن ذريح : قل له بنفسي أنت والله ان وجدي بك لفوق ما تجد ولكن لا حيلة لي فيك .

ومع ذلك فقد حجبت ليلي وأهدر الوالي دم قيس ان تعرض لها ثم أكرهت على الزواج
من غيره . ولما أراد زوج ليلي الرحيل بهالى بلده بلغ المجنون أنه غاد بها فقال يخاطب
نفسه :

أزمعة للبين ليلي ولم تمت كأنك عما قد أظلك غافل
ستعلم ان شطت بهم غربة النوى وزالوا بليلى أن لبك زائل

قيل ان قيساً سقم سقماً شديداً قبل اختلاطه حتى أشفى على الهلاك . فدخل اليه أبوه
يعمله فوجده ينشد هذه الأبيات ويبكي أحربكاء وينشج أمرٌ نشيج :

ألا أيها القلب الذي لج هائماً بليلى وليداً لم تقطع تائمه
أفق قد أفاق العاشقون وقد أنى لحالك أن تلقى طيباً تلائمه
فما لك مسلوب العزاء كأنما ترى ناي ليلي مغرماً أنت غارمه
أجذك لا تنسيك ليلي ملمة تلم ولا ينسيك عهداً تقادمه

قيل : ووقف مستتراً ينظر الى أظمان ليلي وقد رحل بها زوجها وقومها . فلما رأهم
يرتحلون بكى وجزع فقال له أبوه : ويحك انما جئنا بك متخفياً ليتروح بعض ما بك
بالنظر اليهم فاذا فعلت ما أرى عرفت وقد أهدر السلطان دمك ان مررت بهم فأمسك أو
انصرف . فقال ما لي سبيل الى النظر اليهم يرتحلون وأنا ساكن غير جازع ولا باك
فانصرف بنا . فانصرف وهو يقول :

ذو الدمع حتى يظعن الحي انما دموعك ان فاضت عليك دليل
كأن دموع العين يوم تحملوا جمان على جيب القميص يسيل

وتصبح الدنيا كلها ضيقة عليه كأنها حلقة خاتم ويشعر بفؤاده تتخطفه مخالب
الطير :

كأن فؤادي في مخالب طائر اذا ذكرت ليلي يشد بها قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم علي فما تزدد طولاً ولا عرضاً

وهو يتحرق بنار الفراق بعد أنس القرب :

وأدنيني حتى اذا ما سبيتني بقول يَحُلِّ العَصم سهل الأباطح
تناءيت عني حين لا لي حيلة وخلفت ما خلفت بين الجوانح

ومع ذلك فلتفعل ليلي ما بدا لها أو ما أكرهت عليه فليس بمتغير لها ولا تائب عن حبها ولو نصحه الناصحون :

عفا الله عن ليلي وان سفكت دمي فاني وان لم تجزني غير عاتب (١٢)
عليها ولا مبد لليلي شكاية وقد يشتكي المشكى الى كل صاحب
يقولون تب عن حب ليلي وذكرها وما خلتنني عن حب ليلي بتائب

قيل مر المجنون بزواج ليلي وهو جالس يصطلي في يوم شات وقد أتى ابن عم له في حي المجنون لحاجة فوقف عليه ثم أنشأ يقول :

بربك هل ضمنت اليك ليلي قبيل الصبح أو قبلت فاهها
وهل رفت عليك قرون ليلي رفيف الاقحوانة في نداها

فقال اللهم اذ حلفتني فنم . قيل : فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر فما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه وسقط الجمر مع لحم راحتيه ، وعض على شفته فقطعها . فقام زوج ليلي مغموماً بفعله متعجباً منه فمضى .

ان الجنون وقطع الشفة ليس مقصوداً على قيس بن الملوح ولا على الشعراء . وينبغي ألا نستغرب ذلك . فمن المعلوم أن الرسام الهولندي الشهير فان خوخ قطع أذنه وقدمها الى صديقه ثم رسم نفسه مضطرباً الوجه والأذن . والجنون فنون .

يذكر رواة الأدب أحوال المجنون وهيامه في البراري ولكنهم يغفلون نفسية ليلي التي بقيت تحب قيساً بعد زواجها . كيف كانت حياتها مع زوجها وهل كانت عند الوصال تفكر في هذا الزوج أو تغض عينها لتفكر في ابن عمها . كل ما نقرأه أنها كانت دائمة الذكر له على الرغم من غناها . ذكروا أن رجلاً خرج الى ناحية الشام وما يلي تيماء والسرعة وأرض نجد في طلب بغية له فاذا هو بخيمة قد رفعت له وقد أصابه المطر فعدل اليها وتنحنج فاذا امرأة قد كلمته فقالت : انزل . فنزل . ويحدثنا الرجل فيقول : وراحت ابلهم وغنمهم فاذا أمر عظيم فقالت : سلوا الرجل من أين أقبل ؟ قلت من ناحية تهامة ونجد . فقالت : ادخل أيها الرجل . فدخلت الى ناحية من الخيمة . فأرخت بيني وبينها سترأ ثم قالت : يا عبدالله أي بلاد نجد وطئت ؟ فقلت : كلها . قالت : فبمن نزلت هناك ؟ قلت : ببني عامر . فتنفست الصعداء ثم قالت : فبأي بني عامر نزلت ؟ فقلت : ببني الحريرش . فاستعبرت ثم قالت : فهل سمعت بذكر فتى منهم يقال له قيس بن الملوح ويلقب بالمجنون ؟ قلت : بلى والله ، وعلى أبيه نزلت وأتيتة فنظرت اليه يهيم في تلك الفيافي ويكون مع الوحش لا يعقل ولا يفهم الا أن تذكر له امرأة يقال لها : ليلي فيبكي وينشد أشعاراً قالها فيها . قال :

فرفعت الستر بيني وبينها فاذا فلقة قمر لم تر عيني مثلها . فبكت حتى ظننت والله أن قلبها قد انصدع فقلت : أيتها المرأة اتقي الله فما قلت بأساً . فمكثت طويلاً على تلك الحال من البكاء والنحيب ثم قالت :

آکادمی علوم
جمهوری شوروی سوسیالیستی آذربایجان
انستیتی خاورشناسی

امیر خسرو دهلوی مجنون و لیلی

متن علمی و انتقادی و مقدمه از

طاهر احمد اوغلی محرم اوف

مسکو ۱۹۶۵

آکادمی علوم جمهوری شوروی سوسیالیستی آذربایجان
انستیتی خاورشناسی

و
انستیتی زبان و ادبیات بنام نظامی گنجوی

نظامی گنجوی لیلی و مجنون

متن علمی و انتقادی بسعی و اهتمام

اثر محمد علی اوغلی علی صفرزاده

و

ف. بابایف

مسکو ۱۹۶۰

متی رحل قیس مستقل فراجع
ومن هو ان لم یحفظ الله ضائع

ألا لیت شعری والخطوب كثيرة
بنفسي من لا یستقل برحله

ثم بکت حتی سقطت مغشياً علیها فقلت: من أنت یا أمة الله وما قصتك قالت: أنا لیلی
صاحبتہ المشؤومة والله علیہ غیر المؤنسة له. فما رأیت مثل حزنها ووجدہا علیہ قط .

لقد ملک زوج لیلی جسمها ولكنه لم یملک روحها .
أما قیس فما زال یتخبط فی الفیافي والأودیة والنجد اذا رأى ظبیه مصیده فداها
بغنمة أو قلوصل لشبهها بلیلی .

انه يعرف قيمة السیاحة وقيمة الشعر فی تخفیف تباریح وجده قبل أن ینوه بوظیفه
الفن فلاسفة الفن .

فما أشرف الإیفاع الا صبا بة ولا أنشد الأشعار الا تداویا
ومع ذلك فقد بقی فی نفسه خیط من الأمل علی الرغم من الیأس القاتل :
وقد یجمع الله الشیتین بعدما یظنان کل الظن الا تلاقیما

آكادمي علوم جمهوري شوروي سوسياليستي آذربايجان
انستيتوي خاوشناسي

عبدی بیگ شیرازی
خواجہ زین العابدین علی نویدی

مجنون و لیلی

مقابله وتصحيح دستنویس مؤلف
بانتسخه سنه ۱۶۹ هجری
ومقدمه از

أبو الفضل فائز أوعلى جهمون

مسكو ۱۹۴۴

لیلی و المجنون الحب الصوفي

تأليف

الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي

ترجمة وتقديم

الدكتور محمد غنيمي هلال

لباسنس و دكتوراه الدولة في الأدب للفان من السوربون
مدرس الأدب للفان بجامعة القاهرة و ابراهيم

۱۹۵۴

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع ماركس زبر (مارا الزهراء شافا)

ولكنه يختلط عليه عقله • أول الاختلاط أنه أضع حس الزمن والعد :

أصلي فما أدري اذا ما ذكرتها أثنتين صليت الضحى أم ثمانيا

ثم يفقد حس التوجه :

أراني اذا صليت يمممت نحوها بوجهي وان كان المصلي ورائيا
وما بي اشراك ولكن حبها كعود الشجا أعيا الطبيب المداويا

ثم يفقد حس المكان :

روى صاحب « الكشكول » أن المجنون مر على منازل ليلي بنجد فأخذ يقبل الأحجار ويضع جبهته على الآثار فلاموه على ذلك فحلف أنه لا يقبل في ذلك الا وجهها ولا ينظر الا جمالها • ثم رؤي بعد ذلك في غير نجد وهو يقبل الآثار ويستلم الأحجار فليم على ذلك وقيل له : أنها ليست من منازلها فأنشد :

لا تقل دارها بشرقي نجد كل نجد للعامرية دار
فلها منزل على كل أرض وعلى كل دمنة آثار

وسواء أصحت هذه الرواية عن المجنون أم لم تصح فهي تمثل حالة نفسية في شدة
العشق والهيام أبرع تمثيل .

□ الحب الصوفي :

ان نكبة المجنون هنا تبدو ذات مغزى فلسفي أو صوفي وهو أن الحب يحمل في نفسه
غايته . فالمرء يحب للحب نفسه ويتجاوز صفة التعلق بمحسوب مسمى الى حب الحب الى حب
الوجود والتكامل وان خامر هذا الحب الهلاك والردى .

وعندنا أن الصوفية انتبهوا لقصة المجنون هذه وأفادوا منها في حبهام الصوفي الذي
يشمل الكائنات ولكنه يتجاوزها . لنشرح بعض الشيء ما جنحوا اليه ولنفرض مثلاً أن
مستهاماً بالقطع الموسيقية أحب سنفونية مشهورة وسعى فحصل بسهولة على تسجيلها ثم أحب
ثانية وثالثة وهلم جرا وحصل على تسجيلاتها جميعاً فهو في نهاية الأمر قد حصل على قطع
موسيقية جميلة مسجلة ولم يحصل على سرالابداع وجوهر الالهام في التأليف الموسيقي .
وكذلك شأن الحب فهو يسعى نحو حبيب أو أحياء ولكنه لا يملك سر الجمال ولا أكسير
الحب انهما يبقيان متجاوزين للظواهر انهما في القلب الانساني .

وهكذا يعي الصوفي أو الفيلسوف في قصة المجنون غير ما يعيه الأديب محقق الأخبار
ومحصنها أو الزميت الذي يرى في القصة الأخيرة إشارة الى وحدة الوجود وليس الأمر
كذلك وانما المراد في هذا الحديث وحدة الشهود .

وأياً كانت الفحوى لحب قيس فانا لانستغرب كيف ارتكز فريق من الصوفية على
أخبار المجنون ليصوغوا منها آثاراً فنية رائعة وخالدة مثل نظامي كنجوى (ليلي ومجنون)
وأمر خسرو دهلوي (مجنون ويلي) وعبدالرحمن جامي (ليلي والمجنون مترجم الى
العربية) . وعبيدي بيك شيرازي (مجنون ويلي) فالعشق منقبة من مناقب الانسان
عندهم وخاصة من خصائصه . ولكنه يستلزم العفة والطهر ويقرب من الله حين يعتمد على
القلب بعد اعتماده على العقل ، اذ العقل يدرك الحقائق في مدى واسع هو مدى الظواهر
والعلوم ولكنه يفسح بعد ذلك في المجالات والآفاق لمواهب القلب وطاقات البصيرة .

وعدا الصوفية فقد عالج شوقي أخبار المجنون في مسرحيته المشهورة كما وصلت تلك
الأخبار حتى الى الشاعر الفرنسي الحديث أراغون فسمى أحد دواوينه في زوجته «مجنون
السا» تشبيهاً لنفسه بقيس بن الملوّح . وشتان ما بين المجنونين .

وهكذا انقلبت لعنة الحب لدى المجنون الى نعمة رغبة التشبه به في الحب ولو مجازاً
والى نعمة العرفان بالله عند الصوفية الذين هم أشد اندفاعاً وأكثر اصطلاماً في الحب .

لقد بدأنا كتابة هذا الحديث ونحن راغبون في عرض آراء الصوفية عن الحب وفي الموازنة
بين مأساة المجنون ومأساة الحلاج التي انتهت الى الصلب والقتل ضمن مؤامرة ظالمة ولكن
فات وقت الموازنة . ومع ذلك فقد يفيد في الخاتمة أن أشير الى بعض أقوال أبي المغيث (١٣)
الحسين بن منصور :

لو ألقى مما في قلبي ذرة على جبال الأرض لذابت ، واني لو كنت يوم القيامة في النار لأحرقت النار ، ولو دخلت الجنة لانهدم بنيانها .

عجبت لكلي كيف يحمله بعضي
لئن كان في بسط من الأرض مضجع
ومن ثقل بعضي ليس تحملني أرضي
فقلبي على بسط من الأرض في قبض
وهو يمر في سوق بغداد ويصيح :

يا أهل الاسلام أغيثوني فليس يتركني ونفسي فأنس بها ، وليس يأخذني من نفسي فاستريح منها وهذا دلال لا أطيعه ثم ينشد :

حويت بكلي كل كلك يا قدسي
أقلّب قلبي في سواك فلا أرى
تكاشفني حتى كأنك في نفسي
سوى وحشتي منه وأنت به انسي
فها أنا في حبس الحياة ممتّع
عن الانس فاقبضني اليك من الحبس

ولما قدم الى الصלב فهل يجزع ؟ هل يشتم جلاديه ؟ هيهات ! انه يباركهم فيقول في جملة دعائه :

هؤلاء عبادك اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرباً اليك فاغفر لهم . فانك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا . ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت . فلك الحمد فيما تفعل ، ولك المجد فيما تريد . ثم سكت وناجى سرّاً . ويقول الراوي ابراهيم بن فاتك : فتقدم أبو الحارث السيف فلطمه لطمه هشم أنفه وسال الدم على شبيهه . فصاح الشبلي ومزق ثوبه ، وغشي على أبي الحسين الواسطي وعلى جماعة من الفقراء المشهورين وكادت الفتنة تهيج ففعل الحرس ما فعلوا .

أو ليس السهروردي مقتول حلب يصور أحوال الصوفية في قصيدته المشهورة التي منها :

بالسر ان باحوا تباح دماؤهم
ركبوا على سفن الوفا ودموعهم
وكذا دماء العاشقين تباح
بحر وشدة شوقهم ملاح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه
حتى دُعوا وأتاهم المفتاح
حضرُوا وقد غابت شهود ذواتهم
فتهتكوا لما رأوه وصاحوا

ويختم قصيدته بالبيت المشهور :

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم
واها لهم ! انهم مجانين ! انهم مجاذيب ! شأنهم كشأن مجاذيب الرقيقة ومجانين الملو
الذاتي وعشاق المجد المؤئل وأحباب الخلود الانساني .

□ الانسان قطب المحبة :

والخلاصة أن المحبة في التراث العربي الاسلامي قطبها الانسان سواء كان محباً للانسان أو كان محبوباً من أخيه الانسان وسواء كان حبه لله أو كان حب الله له أو كان الحبان مشتبهين فلا بد من أن يلم به ذلك الحب وأن يغمره بنوره المتألق المتعدد الألوان • على أن غمرة النور هذه تؤدي الى النشوة والعنفوان أو الى التبريح والاصطلام هذا لولا النزعات الباغية العدوانية في الميدان السياسي كالنازية والصهيونية • وربما كان الشاعر الكبير محمد اقبال عنى مكانة الحب في التراث حين قال: (١٥)

لم ألق في هذا الوجود سعادة كمودة الانسان للانسان
لما سكرت بغمرها القدسي لم أحتج الى تلك التي في الحان

عبدالكريم اليافي

★ ★ ★

□ الحواشي :

١ - البقرة (٢) - ٢٧٣ •

٢ - القمر (٥٤) - ٣١ •

٣ - الأحزاب (٢٣) - ٢٣ •

٤ - جزء من شعر بيت مشهور سار مثلاً وهو :

إذا قالت حدام فصدقوها فإن القول ما قالت حدام

ينسبه صاحب لسان العرب الى وسيم بن طارق ويقال لجيم بن صعب وحدام امراته •

٥ - شعر من بيتين لمسلم بن الوليد :

كانت بلهنية الشبيبة سكرة فصحوت واستأنفت سيرة مجمل
وقعدت أنتظر الفناء كراحل عرف المحل فبات دون النزل

٦ - جزء من بيت لنصيب بن دباح يصف بكاء ورقاء :

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاهها فقلت الفضل للمتقدم

وقبله بضعة ابيات نورد منها :

وبه شوقي بعد ما كنت نائماً هتوف الضحى مشفوفة بالترنم ...
بكت شجوها تحت الدجى فتساجعت اليها غروب الدمع في كل مسجم
فلو قبل بكاهها بكيت صباية بسعدى شقيت النفس قبل التنم

- ٧ - مطلع معلقة عنتره وهو أشهر من يشار إليه .
٨ - جزء من بيت المتنبي :

وان تكن تغلب الغلباء عنصرها فان في الخمر معنى ليس في العنب

- ٩ - ينشر صديقنا الأستاذ عبد الكريم زهور « كتاب المحبة » تأليف أبي اسحاق ابراهيم بن عبدالله بن الجنيّد الغتلي على صفحات مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .

هذا وقد ألف الدكتور محمد حسن عبدالله كتاباً بعنوان « الحب في التراث العربي » ونشره في سلسلة الكتب الثقافية التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت .

- ١٠ - لا يبعد أن تكون الأبيات لأبي نواس وهو ما هو في الاطلاع على أسانيد الحديث . والأسماء الواردة في الشعر جميع أصحابها من رواة الأحاديث وهم :

أ - الخفاف هو أبو مخلد نطاء بن مسلم من أهل حلب مات سنة ١٩٠ هـ .
الانساب و خلاصة تذهيب الكمال ٢ / ٢٣١

ب - وائل بن حجر بن سعد مسروق روى عن النبي ﷺ مات في ولاية معاوية .
تهذيب التهذيب ١١ / ١٠٨

ج - خالد بن مهران الحذاء البصري أبو المنازل مات سنة ١٤٠ أو ١٤١ .
الانساب ٨٦/٤ و خلاصة تذهيب الكمال ١ / ٢٨٤

د - جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام صحابي مشهور عرف بكثرة حديثه .
خلاصة تذهيب الكمال ١ / ١٥٧

هـ - مسعر بن كدام أبو سلمة الكوفي أحد الأعلام مات سنة ١٥٣ هـ .
خلاصة تذهيب الكمال ٢٢/٣

و - عامر - لعله أراد عامراً الشعبي ولا يوجد غيره ممن يصرح باسمه في الرواية انظر أخباره في تاريخ دمشق (ناصم - نائد) توفي سنة ١٢٨ هـ .

ز - ابن جريج هو عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الرحمن مات في أول خلافة هشام .
خلاصة تذهيب الكمال ٢ / ١٧٥

ح - سعيد بن المسيب بن مسروق روى عن النبي ﷺ
تهذيب التهذيب ١١ / ١٠٨

ط - قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري أحد الأئمة توفي سنة ١٢٧ هـ .
خلاصة تذهيب الكمال ١ / ٢٨٤

- ١١ - أخبار المجنون الواردة مأخوذة من الأغاني ومن تزيين الأسواق .
١٢ - كتاب الزهرة .
١٣ - كتاب أخبار العلاج وديوانه .
١٤ - ترجمة السهروردي في « إرشاد الأديب » .
١٥ - إيوان أقبال : مختارات من شعره نظم الصاوي علي شعلان ص ١١٣ .

★ ★ ★